في تاريخ الأدب المصري

ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

أفديه إن حفظ الهوى ، أوضيعا ملك الفؤاد ؛ فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظُلم الحبيب كظَلمه حلواً فقد جهل المحبة وادعى
يأيها الوجه الجميل تدارك الصـــبر الجميل ، فقد عفا ، وتضعضعا
هل في فؤادك رحمـــة لمتيم ضمت جوانحه فؤاداً موَجعاً
هل من سبيل أن أبث صبابتي أو أشتكي بلواي ، أو أتوجعا
إني لأ ســـتحيي كما عودتني بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

أغنية شائعة ، نستمع إليها ، ونطرب لها ، ونحفظها ، وقليل منا هو الذي يعرف أن قائلها ابن النبيه الشاعر المصري الذي أحببنا أن نحدثك عنه اليوم

— ١ —

يذكر التاريخ ولا ينسى لصلاح الدين وخلفاء صلاح الدين أنهم هم الذين حموا ذمار الشرق من غارة الأوربيين الذين كانوا يمنون النفس بالآمال الكاذبة في الشرق وامتلاك أرضه ، فكان العصر عصر حرب وقتال ونضال ونزال بين الشرق والغرب ، خرج منـــه الشرق ظافراً منتصراً على أيدي ملوك مصر وخلفائهم . ولقد ولد شاعرنا على ما يظهر قبل أن يلي صلاح الدين حكم مصر بقليل ، ولكنه نشأ وشب في أحضان تلك الدولة وفي عهد حكمها الرشيد ، ولكنه لم يعش بمصر طوال حياته ، بل تركها إلى أقطار أخرى كانت كذلك تحت حكم الأيوبيين ؛ غير أنه على ما يظهر لي — لم يغادر الديار المصرية مرة واحدة ، بل كان يزورها في الحين بعد الحين ، واستطاع أن يتصل فيها بطائفة من وزراء الدولة وكبار رجالها كالقاضي الفاضل ، وأسعد بن مماتي ، وصفي بن شكر . والراجح عندي أنه لم يغادر مصر إلا بعد أن مات صلاح الدين ، فانه حينما خرج من مصر مدح العادل ، والعادل لم يل حكم الجزيرة إلا بعد أن مات صلاح الدين ، ولذلك فابن النبيه مدين لمصر بتنشئته وثقافته ، ومدين لها بالرقة والعذوبة التي تتجلى في شعره ، وتأسرك إلى قراءته قسراً ، غير أن نفسه الطموح الراغبة في العظمة والمجد بدأت تتطلع إلى نيل مركز سام ومنصب رفيع ، ورأى أن في مصر من العظماء من لا يستطيع قهرهم ولا منافستهم ، فحث الخطا إلى الجزيرة حيث يستطيع أن يجد له ميداناً للعمل والتقدم ، فاتصل بالملك العادل ، ومن بعده اتصل بابنه الملك الأشرف الذي كان يلقب بشاه أرمن لاستيلائه على بلاد الأرمن ، وقد اختص بهذا الأخير ، حتى إنك إذا قلبت ديوانه وجدت معظمه في مدحه والثناء عليه ، وحتى لتوهمك مقدمته أنه إنما جمع قصداً لكي يجمع ما قاله في الملك الأشرف من مدائح ، ولقد أصبح أثيراً لديه يستصحبه في رحلاته وتنقلاته ، وأصبح ابن النبيه اللسان المسجل لما يلقاه المليك من خير أو نصر أو حادث هام ؛ وصار كاتب الانشاء له ، يدبج عنه الرسائل ، وأحياناً كان يكتبها بالشعر كما سنتحدث بعد . ويقول من أرخ لابن النبيه : إن له شعراً أعذب من الماء الزلال ، وأغرب من السحر الحلال ، ونثراً ألطف من كاسات الشمول ، وأرق من نسمات الشمال ، فالنظم والنثر عنده جنتان عن يمين وشمال . . . غير أننا سنقصر كلامنا اليوم على شعره ، وإن كنت أرجح أن المقدمة التي في صدر ديوانه ، وهي مقدمة نثرية من صنع ابن النبيه فان منها قوله :

وأحق الناس بعد الله تعالى بالشكر ملك أشار اليه بنان البيان ، وأينع بذكره جنان الجنان ، وقلد بذكره القريض فزان الأوزان ، عف وعفا ، وكف وكفى ، وأحيا رفات الوفا ، فزمان دولته غض النضارة ، نض النضارة ، حلو البشـــارة ، بديع الاشارة ، المولى السلطان الملك الأشرف شاه أرمن ، سلطان العراق والشام ، مظفر الدين ناصر أمير المؤمنين ، أبو الفتح موسى ابن السلطان الملك العادل سيف الدنيا والدين ، أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه كما خلد في ديوان المحامد ذكره ، وخذل بسلطانه أعداء الدين ، وأعز نصره ، ولما لم يجد مملوك دولته ، وغرس فواضله ، وربيب نعمته ، الفقير إلى الله تعالى أبو الحسن كمال الدين علي بن محمد بن النبيه ما يكافئ به أياديه ، ويجاري به إحسانه الذي يخجل الغيث روائحه وغواديه ، توفر على استخراج جواهر صفاته من بحر كرمه ، ونظم فرائد فوائده فكافأ نعمه بنعمه ، وجمعها في هذا الكتاب معترفاً أن الشرف

للجوهر لا للناظم ، وأن الفضل للبحر الذى أرسل الغيث على أجنحة الغمائم ، وجعله عرضة لنقد الخواطر ، وميداناً لجولان قريحة كل متأمل وناظر ، وسبيل كل منصف ينظر فيه الامعان بآيات سحره المبين ، وإقالة العثار فيا لعله يعرض من الخطل الوارد على المؤلفين والمصنفين ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم . فاذا أنت قرأت تلك المقدمة

وأنعمت إلى قوله : لم يجد مملوك دولته إلى آخر ما قال استطعت أن ترجح أن تلك المقدمة من قلم ابن النبيه ، واستنبطت منها أموراً أربعة : أولها أن القصد من جمع الديوان تسجيل ما قاله فى الملك الأشرف ، ولذلك رتب الشعر ، فبدأ أولاً بما قاله فى الخليفة العباسى ، لسيادته الروحية على العالم الاسلامى كله ، ثم ثنى بما قاله فى الملك العادل والد الأشرف ، ثم ثلث بما قاله فى الملك الأشرف ، وهو معظم ما قاله من الشعر ، ثم ذكر ما قاله فى غيره من أمراء الأيوبيين والوزراء . ثانيها أن الشعر الذى فى ديوان ابن النبيه شعر يقره ويرضاه ويعده سحراً ويفخر بنسبته إليه ، ومن أجل ذلك ترى من أرخ له يقول : إن هذا الشعر الذى بين أيدينا ليس بكل شعره وإنما هو اختيار منه ، مستدلين على ذلك بأنه شعر بارع جيد يدل على أن صاحبه قد مرن على قول الشعر طويلاً حتى انقاد له ، وأصبح ذلولاً ، فحذف منه مالا يرضى وأبقى منه هـذا الديوان الصغير ، الذى اشتمل على جيد شعره ، (وإلا فما هذا شعر من لا نظم إلا هذا الديوان الصغير) كما قال صاحب فوات الوفيات ، على أنه على ما يظهر لم يجمع ديوانه كله ، إذ أنك ترى فى آخر ديوانه بعض شعر وقصائد ألحقها به جامع الديوان بعد ابن النبيه . ثالثها أن شعر المدح يجب أن ينبعث عن عاطفة حية هى عاطفة الشكران وحفظ الجميل ، وهو يرى أن المدح لذلك واجب لأنه شكر للمنعم على ما أنعم ، وشكر المنعم أول الواجبات قال ... إن شكر كل منعم واجب ، وقام على ذلك دليل انعقد عليه إجماع أئمة المذاهب ، وذلك يدلنا على أنه لقى حقاً من ممدوحه حسن الصنيع وأيادى جمة استحق من أجلها أن يشكر وأن يثنى عليه . رابعها أن تلك المقدمة تعتبر نموذجاً لنثره ، وهى لذلك تستطيع أن تعطينا صورة عن هذا النثر الذى دبجته يراعة ابن النبيه ، فهو نثر صناعى يلتزم فيه السجع ، ويكون للصناعة المحل الأول فى إنشائه ، شأنه فى ذلك شأن كتاب النثر فى ذلك العصر الذى حمل لواء الزعامة فيه القاضى الفاضل ومن نهج منهجه ، فلا جرم كان نثره صناعياً خاضعاً لأحكام البديع وقوانينه ، هـذا وإن شعره ونثره وتوليه أعمال الانشاء للملك الأشرف تدلنا على نوع الثقافة التى تلقاها حتى هيأته لتولى ديوان الانشاء فهو علوم الدين واللغة العربية تلك العلوم التى كان لزاماً أن يأخذ منها بحظ وافر يساعده على تولى هذا المنصب ، ولقد تلقى هذه الثقافة بمصر ، إذ أننا قد رجحنا أنه لم يغادر وادى النيل إلا بعد موت صلاح الدين ، فيكون قد شب وترعرع فى أرض مصر ، والثقافة المصرية كانت زعيمة الثقافات ، كما كان ملوكها زعماء الملوك

— ٢ —

لابن النبيه مذهب فى الحياة يشبه مذهب غيره من شعراء مصر أو على الأقل شعراء مصر الذين درسنا أقوالهم ، ذلك المذهب الذى ينظر إلى الحياة نظرة من يريد التمتع بما فيها من خير وجمال ، لا يصدف عنه ، ولا ينأى بجانبه عن حسنه وما كمن فيـه من أسباب السرور والمتعة ، فهو يوقن أن الدنيا متقلبة ، فهى حيناً ضاحكة ، وأحياناً عابسة ، فماله يعكر على نفسه صفوها حينما تكون صافية ، وماله لا ينتهز الفرص وينال اللذة ؟

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقرا ... عظيم ذنبك ، إن الله غافره

وكان لهـذا المذهب آثاره الكبرى فى حياته العملية ، فهو يحب الخمر ويطرب لشربها ، ويترع الكأس ويروى بها ظمأ نفسه ، وهو يهفو الى السـقاة يتغزل فيهم ، ويصف محاسنهم ، وقد كان السقاة يُختارون من أجمل الفتيان وأصبحهم ؛ بل إنه يهفو الى كل وجه جميل ، ولو كان وجه جندى من الكماة ، وهو يحن الى مجالس الأنس يسعى إليها ويدعو صحبه ليشاركوه لذته ، وهو يأنس الى الطبيعة يحب جمالها ، ويترنم بمفاتنها فيصفها ، وهو يجد لذة فى الخروج الى الصيد يخرج الى الفلاة مع رفقـة حسان الوجوه ، ثم يعود بما وقع فى يده من صيد ، وذلك كله نتيجة لهذا المذهب الذى اختطه لنفسه ، وكان شعره صورة حية له ، فأنت تسمعه يصف الخمر ويقول :

تأمل كئوس عتيق الرحيـ ... ـق ترى الماء يجمد والخمر ذائب

لها فى الزجاجة رقص الشبـ ـاب ومفرقها أشمط اللون شائب
وترعد غيظاً إذا أبرزت من الدن كالمحصنات الكواعب
كأن الحباب على رأسها جواهر قد كللت فى عصائب
لحمرتها صح عند المجو س أن السجود الى النار واجب

ويصف موطن لذة نال فيه السرور من الخمر والساقى ويقول :

رق الزجاج وراق كأس مدامنا ورضاب ساقينا الأغن الأهيف
فمزجت ذاك بهذه وشربتها ولثمته ، وضممته بتلطف
وجنيت من وجناته لما استحى وردا بغير رضا بنا لم يقطف
ورنا الى بطرفه فكأنما أهدى السقام لدنف من مدنف
بتنا وقد لف العناق جسومنا فى بردتين : تكرم وتعفف

ويقول مرة أخرى متغزلاً بالساقى وكان من الأتراك :

ساق كأن جبينه فى شعره قمر تبلج فى الليالى السود
غصن ترنح خصره فى ردفه فعجبت للمعدوم فى الموجود
إياك والأتراك إن لبعضهم أشخاص غزلان وفعل أسود
أجسامهم كالماء إلا أنها حملت قلوباً من صفا الجلمود

وتسمع منه غير ذلك كثيراً فى وصف الخمر وسقاتها والتغزل فيهم ؛ ولعل بعضهم لامه على شرب الخمر أو على الاكثار من شربها فقال له :

الراح روحى ، فكيف أهجرها منظرها طيب ومخبرها
راح إذا ما الفقير صافحها أغناه ياقوتها وجوهرها

فاذا ذهبت تستمع الى حبه للطبيعة وغرامه بها سمعته يقول :

قس بالسماء الأرض تعلم أنها بكواكب الأزهار أحسن زخرف
أحداق نرجسها لخد شقيقها مبهوتة بجماله لم تطرف
والطل فى زهر الأقاح كأنه ظلم ترقرق فى ثنايا مرشف

وهو إحساس طيب وشعور حميد يوجه نظرك إلى أن فى الأرض جمالاً قد تزيد قيمته عما فى السماء من نجوم وكواكب ، فليقبل على الزهور يتمتع بمرآها ، ويستلذ بشميم رياها وينعم بجمالها . كما كان له — كما حدثتك — لذة خاصة فى الصيد حينما يخرج مع جماعة (حسان الوجوه) فيصطادون ويتمتعون وهو يصف لك ذلك فى قوله :

برزنا الى اللهو فى حلبة حسان الوجوه خفاف المراكب
بنادقهم فى عيون القسى كأحداقهم فى قسى الحواجب
فتلك لهـا طائر فى السما ء وهذى لها طائر القلب واجب
وحلت سوابق شهب خوا طف حجن المنا سر حوث المخالب
زاة لها حدق الأنمرا ن وأظفارها لحماة العقارب
فللأفق نسران : ذا واقع وذا طائر حذر الموت هارب
وأطلق كلاّبنا ضارياً يبارى هبوب الصبا والجنائب
تطير به أربع كالريا ح ويفتر عن مرهفات قواضب
ويضرب فى ليل جلبابه شعاع شهاب من العين ثاقب
وعدنا نجر ذيول السرو ر والطير والوحش ملء الحقائب

ألا تراه يصف لك رحلة شيقة ؟ إذ أنه قد خرج مع جماعة حسان الوجوه يقصدون اللهو والتمتع فاختاروا الصيد ملهى لهم فخرجوا يبغونه ، ولكنه قبل أن يصف لك مافعلوه فى رحلتهم مضى يحدثك عن جمال رفقته وأن عيونهم كالسهام تصيب القلوب وتدميها ، فأحداقهم كالبنادق هذه هدفها طائر فى السماء ، وتلك يجب لها طائر القلب ويخفق

ذهبوا الى مكان الصيد فأطلقوا بزاتهم وكلابهم فانطلقت لاتلوى على شىء تصطاد ما عن لها ، وبعد أن وصف لك بزاتهم وكلابهم التى كانت عدتهم طمأنك على نتيجة الرحلة وأنها أنتجت نتيجتها فعادوا يجرون ذيول السرور والطير والوحش ملء الحقائب

هذا وكان أكبر شىء يسره مجلس أنس يجمع بين روضة فيها مختلف الأزهار والورد حف بها نهر ، وهناك بين أصحابه يجلس مغن يطرب السامع ويملك عليه نفسه ، ثم تدور المدام فى يد ساق جميل فيسكر سكرين من الخمر وجمال الساقى . وقد وصف ذلك المجلس حينما أرسل الى أحد أصحابه يستدعيه إذ قال :

نحن فى روضة وزهر ونهر ومدام كالشمس من كف بدر
ومغن قد راسلته الشحار ير ، فأغنت عن جس عود وزمر
أنت روح ، ونحن جسم فان غبـ ت فان القلوب تكوى بجمر
إن كفا إليك قد كتبتها تتهادى ما بين سكر وشكر

فأنت ترى من كل ما ذكرناه أنه كان يذهب فى الحياة مذهب الذين يريدون أن ينالوا منها كل متعة ولذة ، يلتمسونها فى كل مكان ، وترى أن مثله الأعلى فى الحياة كان أن يتمتع بها ، ولا يضن على نفسه بشىء من مباهجها ، وكله ثقة فى أن الله سوف يغفر الذنوب جميعاً

(البقية فى العدد القادم) أحمد أحمد بدوى